واحد ثم إلى مدرسة واحدة؛ فإن أمسكتما أبناءكما عند ما حفظا من العلم وحصَّلا من الشهادات وقفوا هم وتقدم أترابهم، ثم لا تمضي الأعوام حتى يكون أبناؤكما في نفس منزلتكما، وحتى يكون أبناء هؤلاء الموظفين لهم سادة وعليهم رؤساء، ومع ذلك فقد كان أبناؤكما يتفوقون في المدرسة على أبناء هؤلاء الموظفين، وهم جديرون أن يتفوقوا عليهم في المدارس الأخرى، وهم جديرون آخر الأمر أن يسبقوهم ويظفروا بما لم يظفروا به من وسائل الفوز، فانظروا كيف تجدان أنفسكما يوم يظفر أبناؤكما بالشهادة أو المنصب ويقصر على الشهادة أو المنصب أبناء الرئيس والقاضي والمأمور! وكان هذا الكلام يقع في قلب خالد وامرأته موقعًا غريبًا، يُنسيهما كل شيء ويدفعهما إلى التضحية بكل شيء، فكان كل عام دراسي يشهد بيع شيء مما كانت الأسرة تعتز به وتحرص عليه، فيبيع البقر والجاموس والخيل شيئًا فشيئًا، ثم بيع حُلِيّ «مُنى» شيئًا فشيئًا حتى أصبحت أعطل من الفقيرات بين نساء المدينة، فلم تكن في المدينة امرأة فقيرة إلا ولها القرط من الذهب أو الفضة تُعلقه في أذنيها، أو الخلخال من الفضة تديره حول ساقيها، وقد كان لمُنى من هذا الحُلِيِّ أنفسه وأكرمه، ولكنها جعلت تنزل عنه عامًا بعد عام للمعلم جرجس هذا الذي كان يلم بالبيت إذا دعاه خالد، فيأخذ الحُلِيَّ في يده ينظر إليه فيطيل النظر، ثم يزنه ثم يُؤدي ثمنه إلى خالد، ويدفعه خالد إلى بنيه ليُؤدوا منه أجور التعليم، ثم اضطر خالد أن يقتصد في زيه؛ فقد كانت ثيابه من أزهى الحرير وأجود الصوف، يُنفق في ذلك ما لا يُنفق أصحابه مثله، فإذا هو يزهد في هذا كله، ويتخذ ثيابه من القماش الأبيض والصوف الرخيص، وليس هو وحده الذي يقتصد فامرأته وبناته يذهبن في الاقتصاد مذهبه ويسرن سيرته؛ فقد كان يجب أن يتعلم الأبناء وأن يعيشوا في القاهرة عيشة راضية.

ولم يكن أملٌ في أن يستعين خالد أباه، فقد بَعُدَ العهد بثروة أبيه، وأصبح علي شيخًا فانيًا ضريرًا أعزب عِيَالًا على أبنائه، يرزقونه في المدينة ويودُّون لو أقام عند كل واحد منهم جُزءًا من السنة ليعيش مع أهله كما يعيشون حتى لا يكلفهم نفقة خاصة، ولكن عليًّا مصمم على أن يبقى في داره ليعيش في غرفة أم خالد، وهو لا ينتقل من هذه الدار إلا إذا أقبل الشتاء من كل عام؛ فإنه يحب أن ينفق الشتاء عند خالد حيث يجد من الدفء والراحة والخدمة ما لا يجده في داره، ولكنه قد أخذ على خالد عهدًا إن أصابته علة أن يرده إلى داره وإلى غرفة أم خالد من هذه الدار؛ لأنه يريد أن يموت حيث ماتت زوجته الأولى؛ وليس أمل في أن يستعين خالد حماه الحاج مسعودًا؛ فقد عبث الحاج